الله والإنسان

فى الفكر المصرى القديم

أ. د. السيد رزق الحجر(*)

مقدمة

الحمد لله الذى لا تحصى نعمه، ولا يحصى ثناء عليه، سبحانه هو كما أثنى على نفسه، والصلاة والسلام على خير خلقه، وخاتم رسله سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحابته ومن اهتدى بهديهم وتبعهم بإحسان إلى يوم الدين... أما بعد:

فمن الحقائق التى غدت محل إجماع الباحثين ومؤرخى الحضارات فى القرن الحالى أن الحضارة المصرية قد ظهرت فتية زاهرة – على الأقل – منذ أواخر الألف الخامس قبل الميلاد، فهناك شبه إجماع عالمى على سبق الحضارة المصرية لكثير من الحضارات.

يقول "أورسيل": "من الأمور التى لا ريب فيها أن الحضارة أقدم عهدًا فى مصر مما هى فى أى بلد آخر من حوض البحر الأبيض المتوسط، فمنذ سنة ٤٢٤١ قبل الميلاد شرع هناك فى إصلاح التقويم بما يـــدل على سبق

(*) أستاذ الفلسفة الإسلامية– بكلية دار العلوم– جامعة القاهرة.

obeikandl.com

التجارب والتفكير لعـدة قرون خلت، وفى عهد الأسر الأولى، أى فى نهاية الألف الرابع قبل الميلاد، بلغت طرق العمل الفنية شأوًا جديرًا بالإعجاب"[1].

فإذا كان هناك شبه إجماع عالمى على سبق الحضارة المصرية لجميع الحضارات، وإذا كان هذا الأمر أشد ما يكون وضوحًا فى الجانب المادى للحضارة، فما الحال بالنسبة للجانب الروحى؟

إن الجواب على هذا السؤال هو ما نهدف إليه فى هذا البحث، ولكى يكون الجواب واضحًا ومكتملا فلا بد أن يتبلور من خلال الوقوف على ما حفل به الفكر المصرى القديم فى قضية "الألوهية" وما تضمنته حول الإنسان وماهيته، ثم ما قرره فى فلسفة الأخلاق، وتلك هى القضايا التى سوف نعرض لها فى ثلاثة مباحث على الترتيب المذكور.

(١) الفلسفة فى الشرق: ص٥٠.

obeikandl.com

المبحث الأول

الألوهية فى الفكر المصرى القديم

يستطيع من يقف على التراث المصرى أن يلحظ ثراء وتنوعًا كبيرًا فيما يتصل بموقف المصريين من رسالة "التأليه" فهم حينًا وثنيون يتعبدون لآلهة متعددة، وحينًا موحدون يدينون لإله واحد لا شريك له، وحتى فى حال اعتقادهم بتعدد الآلهة يبدو التنوع كبيرًا، فقد تكون هذه الآلهة من ذلك النوع من "المعبودات المحلية كالحيوانات والأشجار والجبال" وقد تكون من المظاهر الكونية "كالسماء والأرض والكواكب والنيل"(١).

وفى بعض الفترات يكون الملك هو المعبود الذى بيده كل شىء، وحول شخصه يتجمع كل شىء كما كان الحال فى أيام المملكة القديمة فى الفترة من سنة ٢٨٩٥ إلى ٢٣٦٠ قبل الميلاد. فقد "كانت الدولة موحدة ومركزة ومندمجة فى شخص فرعونها، إذ كان رب السلطة الدينية والزمنية، والملك الوحيد للأرض والعاهل الذى هو مصدر حياة الناس والآلهة، ولما كان هو مرجع الوجود والرفاهية، فالشعب بأسره يعمل من أجله، ويضحى فى سبيله حتى بالحياة"(٢).

ومع هذا التنوع فى تعدد الآلهة يطلعنا تراث المصريين القدماء على شكل رائع من أشكال التوحيد، يتجلى فى الإيمان بمبدأ أول، واحد لهذا الوجود، إنه الإله الواحد الخالق المحيط بالمخلوقات، رب الدنيا والآخرة.

ففى وثيقة من أقدم الوثائق المصرية – وهى "تمثيلية منف" التى يرجع

---

(١) انظر أورسيل: الفلسفة في الشرق، ص٥١.

(٢) المرجع السابق: نفس الموضع.

تاريخها إلى القرن الرابع والثلاثين قبل الميلاد – نقرأ النص التالى: "إن (بتاح) صاغ وحدانيته بنفسه، وكل كلمة ربانية إنما تخرج إلى الوجود بتفكيره، إنه الذى صاغ الأجسام والصفات، إنه هو الذى خلق كل الأطعمة والضحايا بالكلمة، إنه الذى يسبب لكل خاتمة أن تخرج، وإنه هو اللسان الذى يعلن عن أفكار القلب، إنه هو الذى خلق كل عمل، وكل صنعة تصوغها الأيدى، ومشى الأقدام، وحركة كل عضو تبعًا لأمره عن طريق تفكير القلب، الذى يتحقق باللسان"(١).

إن هذا النص، فضلا عن دلالته على التوحيد، مفعم بدلالات فلسفية كثيرة تتعلق بـــ "الخلق" و"الأمر" و"الفكر" و"القدر" لكنا نترك التعليق على ذلك حتى نقرأ النص التالى، وهو من نصوص الوثيقة ذاتها وفيه "حدث أن القلب واللسان تغلبا على كل عضو فى الجسم، وعلما الإنسان أن (بتاح) كان فى كل صدر على هيئة القلب، وعلى هيئة اللسان فى كل فم.. وفى الوقت نفسه يفكر (بتاح) فيما يشاء، ويأمر بكل ما يريد".

"أعلن (بتاح) أسماء كل شىء، خلق بصر العين، وسمع الأذنين، وتنفس الأنف، حتى يمكن أن ينتقل إلى القلب، وهو المتسبب فى أن كل نتيجة يجب أن تظهر، وهو اللسان الذى يجب أن يعلن عن فكر القلب... كل كلمة مقدسة جاءت إلى الوجود من خلال ما فكر فيه القلب، وما أمر به اللسان، ومن ثم كان كل شىء..."(٢).

فإذا كان القلب يطلق على "العقل" و"الفهم"، وكان اللسان هو أداة اللغة

---

(١) الدكتور أحمد الحينى: فى العقائد والأديان، ص٤٧.
(٢) السابق: وانظر الدكتور محمد الشرقاوى: مدخل نقدى للفلسفة، ص٢٢.

التى هى وسيلة التعبير عما يدور بالعقل من أفكار وإرادات، فإن ما تحمله هذه النصوص من معان ودلالات دينية فلسفية فى تلك الأزمان السحيقة لجديرة حقا بأن تستوقف العقل أمامها فى محاولة لاستنكاه حقائقها.

ومن المدهش حقا أن هذه المعانى تنساب فى لحن تام الانسجام عبر التاريخ المصرى القديم من الألف الرابع قبل الميلاد إلى الألف الثالث، إلى عهد "ممفيس" فـ "طيبة" ثم "تل العمارنة". ففى "طيبة" وجد نشيد دينى يتعلق بتسبيح الإله "أمون" جاء فيه: "أول من جاء إلى الوجود فى الأزمان الأولى أمون، لا إله أتى إلى الوجود قبله، ولم يكن معه إله آخر، ليس له أم، وليس له أب، وهو من العظمة بحيث يجب أن يسأل الناس عنه، ومن القوة بحيث ينبغى أن يعرف، كل الآلهة ثلاثة: آمون ورع وبتاح، ولا تالى بعدهم، الخفى اسمه آمون، هو رع فى وجهه وبتاح فى جسده".

وفى القرن الرابع عشر قبل الميلاد قويت الدعوة إلى التوحيد، فقد تولى الملك "إخناتون" عرش مصر الموحدة، ونشط فى دعوة الناس إلى الإيمان بإله واحد بيده مقاليد كل شىء. وها هم كهنة "إخناتون" يخاطبون الإله فى واحد من أناشيدهم قائلين: "ما أعظم أعمالك أيها الإله، إنها خافية عن جميع البشر، أيها الإله الواحد الذى لا إله سواه، أنت خلقت الأرض حسب مسرتك، قد خلقت الجلد البعيد لتشرق منه بوجهك، لكى ترى عيناك كل ما صنعت يداك، الأرض كلها بين يديك، لذلك أنت الذى صنعتها، فعندما تشرق تحيا الخلائق، وعندما تغيب تموت، لأنك أنت مصدر الحياة، وجميع الناس بك يحيون"[1].

---

(١) حبيب سعد: أديان العالم، ص٤٥. وانظر بول ماسون أورسيل: الفلسفة فى الشرق ص٥٣، ٥٤.

والآن، ما المعانى الفلسفية التى يمكن استخلاصها من هذه النصوص؟ لا شك أن استنطاق هذه النصوص بما تتضمنه من معان ودلالات فلسفية يحتاج إلى مزيد من التأمل لهذه النصوص، كما يحتاج إلى نصوص أخرى للمساعدة فى التثبت من معانى الألفاظ والمصطلحات التى يتكرر ورودها فى هذه النصوص، ومع ذلك، فإنه يمكننا الإشارة إلى بعض هذه المعانى والدلالات الفلسفية على النحو التالى:

أولاً: المبدأ الأول للعالم

إن المصريين القدماء قد فكروا – وأغلب الظن أنهم أول من فكروا – فى تفسير لهذا الكون، أحيائه، وظواهره، وما يجرى فيه من أحداث، وأنهم قد وصلوا بتفكيرهم هذا إلى معرفة المبدأ الأول أو المبادئ الأولى للوجود، وهو كما تكشف عن ذلك النصوص المذكورة إما الإله الواحد الذى بيده ملكوت كل شىء، وإما ألهة متعددة مثل: "رع" إله الشمس واهب الدفء، ومصدر النور، و"آمون" الإله المستتر، و"أوزوريس" إله الحب والتعاون والسلام، "وإيزيس" إله الحياة، وغيرهم(١). والى جانب ذلك نعثر فى التراث المصرى القديم على أصول تلك النظرية التى ظهرت لدى الفلاسفة الطبيعيين الأوائل من اليونانيين، وهى نظرية العناصر الأربعة فى الطبيعة، الماء، الهواء، النار، التراب، مع إعطاء الماء الأولوية الأولى بين هذه العناصر، فقد كانت هذه النظرية ضمن ما أخذه فلاسفة اليونان الأوائل عن المصريين، بالإضافة الى ما أخذوه عنهم فى ميدان الهندسة والحساب ،

(١) انظر الدكتور أحمد الحينى: فى العقائد والأديان، ص٦٣، وما بعدها.

والفلك، فمجموع نتائج هذه العلوم والآراء الفلسفية" هى التى ذهب للبحث عنها على ضفاف النيل "تايس" أولا، ثم "فيثاغورث" بتوصية منه، وهو الذى – على قول "جامبليك" – قضى اثنين وعشرين عامًا فى المعابد المصرية، ولا يغيب عنا أن هذا الاتصال الذى فتح بابًا للتفكير الإغريقى قد تلاه عصر التعاون بينهم وبين المصريين فى موطن العلم الذى لا نظير له فى العالم، وهو الإسكندرية، تلك المدينة التى نجحت فى جمع الشرق بالغرب" (١).

ثانيًا: آثار النبوات فى الفكر المصرى:

إن هذا التفكير من قبل المصريين لم يكن من فراغ، وإنما كان يهتدى فى الكثير من الأحيان – كما تكشف عن ذلك النصوص السابقة – ببقايا من آثار رسالات سماوية سابقة، وهى آثار لم تقدر كل أشكال الوثنية على محوها، فمن الثابت تاريخيًا أن إبراهيم عليه السلام، وهو أبو الأنبياء – قد نزل أرض مصر وعاش بها فترة من الزمن، ولا بد أن تكون عقيدته الدينية قد تركت آثارها فى بعض من خالطهم من المصريين حتى مع افتراض أنه لم يرسل إليهم(٢).

كذلك أثبت القرآن الكريم والتوراة وكتب التاريخ أن عددًا من أنبياء اليهود قد وفدوا على مصر (يعقوب وبنيه) وقد دعا بعضهم (يوسف عليه السلام) المصريين إلى عبادة الله الواحد الأحد كما يحكى القرآن الكريم فى

---

(١) أورسيل: الفلسفة فى الشرق. ص٥٦.

(٢) حول قدوم ابراهيم عليه السلام إلى مصر. انظر سفر التكوين: ١٢.

ذلك قول يوسف عليه السلام: ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُتَفَرِقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الوَاحِدُ القَهَارُ ۞ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلا أَسْمَاءً سَمَيْتُمُوهَا أَنْتُم وَءَابَاؤُكُم مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الحُكْمُ إِلا للهِ أَمَرَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَاهُ ذَلِكَ الدِينُ القَيِمُ وَلَكِنَ أَكْثَرَ النَاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (١).

وبعد يوسف عليه السلام بعدة قرون تجددت دعوة المصريين إلى التوحيد بواسطة موسى وهارون عليهما السلام، والمعروف أن موسى عليه السلام قد ولد فى مصر، وترعرع فى قصر فرعون، ثم هرب من مصر إلى "مدين" وبعد بضع سنوات، وفى طريق عودته بأهله من أرض مدين إلى سيناء: ﴿ نُودِيَ مِن شَاطِئِ الوَادِ الأَيْمَنِ فِى البُقْعَةِ المُبَارَكَةِ مِنَ الشَجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِى أَنَا اللهُ رَبُ العَالَمِينَ ۞ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَا رَءَاهَا تَهْتَزُ كَأَنَهَا جَانٌ وَلَى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ إِنَكَ مِنَ الأَمِنِينَ ۞ اسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِن غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَهَبِ فَذَنِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَبِكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ إِنَهُم كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ (٢).

وهكذا كلف موسى وهارون عليهما السلام بدعوة فرعون وقومه الى عبادة الله رب العالمين. وكان ذلك – فيما يرجح الطبيب النفسانى اليهودى الشهير "زيجموند فرويد" – بعد موت "الفرعون المصرى (إخناتون) أول شخصية تاريخية تثور على الشرك والوثنية، وتقول بإله واحد، وكان

---

(١) سورة يوسف: ٣٩، ٤٠. وقد ذكرت سورة يوسف هجرة يعقوب وبنيه إلى مصر، اقرأ الآيتين ٩٩، ١٠٠، وانظر فى ذلك سفر التكوين من الصحاح ٤٦ الى آخر السفر.

(٢) سورة القصص: الآيات التى تحكى بعثة موسى وفرعون، وموقف فرعون منهما ونهايته، من الآية ٢٩ وحتى ٤٠، والآيات التى تحكى قصة مولد موسى عليه السلام من أول السورة الى الآية ٢٨. ونفس القصة مذكورة فى سورة الشعراء الآية ١٠: ٦٧، وفى سور أخرى من القرآن الكريم، وهذه القصة هى موضوع سفر الخروج.

إخناتون كان ممهدا لرسالة موسى. ولكن حدث بعد موت هذا الفرعون أن تغلب الكهنة المصريون من شعبة الديانة الوثنية القديمة"[1]. فعاودت الوثنية من جديد فى الفترة التى أعقبت دعوة إخناتون الى التوحيد، وبالتالى أصبح الظرف مناسبًا لبعثة موسى ليجدد عقيدة التوحيد فى مصر.

كل ذلك يؤكد ما قلناه وهو أن المصريين القدماء لم يكن تفكيرهم حول "المبدأ الأول" نابعًا من فراغ، وإنما كان يهتدى – فى الكثير من الأحيان – برسالات السماء وذلك أمر يستوجب أن تعاد إلى بساط البحث كتابات كثيرة تصور المصريين فى تاريخهم القديم كأنهم خلق بعيدون تمامًا عن عناية السماء، يبحثون فى طريق الإيمان من خلال رؤاهم اليومية للموت والتوالد، واليقظة والتتابع الأساسى للإخصاب والفناء كما يذهب إلى ذلك "هوجين" ويقبلون بما يقدم لهم الكهنة من أفكار حول الآلهة المتعددة[2].

وليس من الصعب إدراك المسحة الدينية السماوية من خلال نصوص الفكر المصرى القديم ذاتها، ففى النص الوارد فى "تمثيلية منف" نقف على وحدانية الله تعالى، وأنه واحد بذاته "إن (بتاح) صاغ وحدانيته بنفسه". ونعلم أنه خالق كل شىء: الأجسام والأعراض والأعمال "إنه الذى صاغ الأجسام والصفات، إنه الذى خلق كل الأطعمة وكل الضحايا بالكلمة.. إنه هو الذى خلق كل عمل وكل صنعة تصوغها الأيدى ومشى الأقدام وحركة كل عضو تبعًا لأمره".

---

(١) الدكتور حسن ظاظا: الفكر الدينى اليهودى، أطواره ومذاهبه، الطبعة الثالثة، دار الكلمة بدمشق سنة ١٩٩٥، ص١٨.

(٢) انظر الدكتور مختار ناشد: فضل الحضارة المصرية على العلوم.

يتضمن النص كذلك معنى يقترب كثيرًا من معنى الآيـــة الكريمـــة: ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِى أَنشَأَكُم وَجَعَلَ لَكُم السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ﴾ [1]، فإن (بتاح) قد "خلق بصر العينين، وسمع الأذنين، وتنفس الأنف حتى يمكن أن ينتقل إلى القلب"، وهو فعال لما يريد، إذ "يفكر فيما يشاء، ويأمر بكل ما يريد" وهو إذا أراد شيئًا يقول له كن فيكون" كل كلمة مقدسة جاءت إلى الوجود من خلال ما فكر فيه القلب وأمر به اللسان، ومن ثم كان كل شيء"، وهو الذى "علم آدم الأسماء كلها"، "أعلن (بتاح) أسماء كل شيء".

وفى نصوص "طيبة" تتجلى صفات الإله كما لو كانت فى كتاب سماوى، فهو الأول، وهو الواحد، ولا أم ولا أب له، وهو العظيم، القوى، الذى تجب معرفته " أول من جـــاء الى الوجود فى الأزمان الأولى (آمون) لا إله أتى إلى الوجود قبله، ولم يكن معه إله آخر، وليس له أم وليس له أب، وهو من العظمة بحيث يجب أن يسأل الناس عنه، ومن القوة بحيث ينبغى أن يعرف".

فإذا انتقلنا إلى نصوص عهد (إخناتون) فإننا نقف على هذه المعانى والدلالات الدينية الفلسفية بشكل أكثر وضوحًا مما يؤكد خطأ الآراء التى تصور المصريين القدماء وكأنهم يعيشون فى عماهة وعمى، لا مصدر لأفكارهم وعقائدهم سوى مناظر الطبيعة وظواهرها.

ثالثًا: فكرة الكلمة أو العقل "اللوجوس":

كشف الفكر المصرى القديم كذلك عن فكرة "الكلمة" أو "العقل"، فقد تكررت هذه الفكرة عدة مرات فى نصوص "ممفيس" التى يرجع تاريخهـــا

(١) سورة الملك: ٢٣، ونفس المعنى فى سورة النحل، الآية ٧٨.

إلى القرن الرابع والثلاثين قبل الميلاد، ففيها نقرأ وصف الإله بأنه الخالق لكل شيء "عن طريق تفكير القلب الذى يتحقق باللسان"، "وكل كلمة ربانية إنما تخرج إلى الوجود بتفكيره" وهو "يفكر فيما يشاء، ويأمر بكل ما يريد".

ومرة رابعة فى ذات الوثيقة نقف على وصف الإله بأنه "هو اللسان الذى يعلن عن فكر القلب، كل كلمة مقدسة جاءت إلى الوجود من خلال ما فكر فيه القلب، وأمر به اللسان، ومن ثم كان كل شيء"، وهكذا نتبين أن الإله يخلق كل شيء بقوله لما يريد: كن فيكون.

مثل هذا الفهم ورد فى وثيقة "ممفيس" خاصا بالعقل والفكر والكلمة والأمر هو الذى جعل "أورسيل" يقرر أن مصر قد عملت "على تكوين فكرة الكلمة أو العقل (اللوجوس)، وشاركها فى ذلك شعوب أخرى، ولكن لم يصل شعب من هذه الشعوب، حتى فى الأوساط الإغريقية، إلى ما وصلت إليه مصر من تنظيم هذه الفكرة تنظيمًا دقيقًا، فالصانع يخلق بالتعبير بلسانه عما يفكر فيه بقلبه، وبهذه الطريقة خلق الآلهة، "كاهاتهم"، وكذلك أيضًا جعل "أوزوريس" كاملا عن طريق الحركة التى أعيدت إلى فم إحدى المومياات"[1].

وهكذا نرى المصريين – فى هذا الزمن الموغل فى القدم – وقد فهموا الأصل الأول للكون أو الوجود على أنه "العقل" أو"الفكر"، الفكر المدرك، الذى نشأت منه جميع الأشياء. وسوف نتبين، عند الحديث عن الفلسفة اليونانية، صحة ما ذكره "أورسيل" حين قرر أن الإغريق لم يصلوا إلى ما وصلت إليه مصر من تنظيم هذه الفكرة تنظيمًا دقيقًا.

---

(١) أورسيل: الفلسفة فى الشرق، ص٦٠.

رابعا: فكرة الأقانيم الثلاثة:

إنه لمن المثير حقا أن فكرة "التثليث" التى تعبر عن جوهر الديانة النصرانية، لها نظير فى الفكر المصرى الضارب فى أعماق الماضى السحيق، وتتلخص هذه الفكرة لدى النصارى – كما يشرح ذلك الدكتور بوست فى تاريخ الكتاب المقدس – فى أن "طبيعة الله عبارة عن ثلاثة أقانيم متساوية: الله الأب، وإلى الابن الفداء، وإلى الروح القدس التطهير".

وهذه الأقانيم تمثل فى النصرانية ثلاثة عناصر متلازمة لذات الخالق، ويبين القس "بوطر" فى رسالته "الأصول والفروع" هذا التلازم الثلاثى فى ذات واحدة حين يقرر أن "وحدة الجوهر لا يناقضها تعدد الأقانيم، وكل من أنار الله ذهنه. لا يقدر أن يفسر "الكلمة" بمجرد أمر من الله أو قول مفرد، ولا يفسر "الروح" بالقوة التأثيرية، بل لا بد له أن يعلم أن فى اللاهوت ثلاثة أقانيم متساوين فى الكمالات الإلهية، وممتازين فى الاسم والعمل...".

هذا الثالوث الذى يتوفر لكل فرد من أفراده نفس الكمالات الإلهية، والذى يمتاز كل واحد من أفراده عن غيره بالاسم والعمل، نعثر على صورة قريبة الشبه به فى الفكر المصرى القديم، ففى نصوص "طيبة" نشيد دينى فى تمجيد الإله "آمون" وفيه: "أول من جاء إلى الوجود فى الأزمان الأولى "آمون" لا إله أتى إلى الوجود قبله، ولم يكن معه إله آخر... كل الآلهة ثلاثة: آمون، ورع، وبتاح، ولا تالى بعدهم. الخفى اسمه "آمون"، هو "رع" فى وجهه، و"بتاح" فى جسده"، ففكرة التثليث واضحة فى هذا النص، فهل يصح القول بأن هذه الفكرة قد انتقلت إلى النصرانية من الفكر

المصرى القديم؟. ذلك أمر يحتاج تحقيقه إلى بحث خاص يتتبع مسيرة الفكر المصرى خلال امتزاجه بالفكر اليونانى فى مدرسة الإسكندرية، ويتتبع كذلك الظروف الفكرية التى استقى منها "بولس" – أول داعية إلى التثليث فى النصرانية – أفكاره التى أدخلها إلى النصرانية.

والغريب أن هذه الفكرة ذاتها قد وجدت فى التفكير الهندى، فقد عرفت الهند – قديمًا كما سنرى ذلك فيما بعد – تعدد الآلهة حتى إذا كان القرن التاسع قبل الميلاد عمل الكهنة الهنود على جمع الآلهة فى إله واحد، فى محاولة منهم للتوفيق بين التوحيد والتعدد، فقالوا: إن الله واحد، وهو الذى أخرج العالم من ذاته، وأطلقوا عليه ثلاثة أسماء، فمن حيث هو موجود أسموه، "براهما"، ومن حيث هو حافظ أسموه "فشنو"، ومن حيث هو مهلك أسموه "سيفا"(١).

يوضح هذه الفكرة ما ورد فى كتب الهند من أن كاهنًا توجه إلى الآلهة الثلاثة وسألهم: أيكم الإله بحق؟ فأجابوا جميعًا: اعلم أيها الكاهن أنه لا يوجد أدنى فارق بيننا نحن الثلاثة، فإن الإله الواحد يظهر بثلاثة أشكال، بأعماله من خلق وحفظ وإعدام، ولكنه فى الحقيقة واحد، فمن يعبد أحد الثلاثة فكأنما عبدها جميعًا أو عبد الواحد الأعلى(٢).

فإذا كانت هذه الفكرة فكرة التثليث قد ظهرت فى الهند قبل ميلاد المسيح عليه السلام بتسعة قرون، ثم ظهرت فى النصرانية على يد "بولس"

---

(١) انظر الدكتور أحمد شلبى: أديان الهند الكبرى، ص٤٧.
(٢) انظر محمد فريد وجدى: دائرة المعارف، ج٢، ص١٥٥.

فإنه يصح القول بأنها انتقلت إلى هذه الديانات من الفكر المصرى القديم الذى تقررت فيه منذ منتصف الألف الثانى قبل الميلاد.

وقد يتأكد هذا الرأى بما ذهب إليه "أورسيل" وهو أن الكثير من الأشكال والرموز الدينية المصرية قد انتقلت إلى الشرق فنشأ عنها الزرادشتية والبوذية[1].

فإذا أضفنا إلى ذلك ما قرره من أن المصريين والإغريق قد اختلط بعضهم ببعض فى الإسكندرية، وأنهم جميعًا قد اتصلوا بالعامل السامى الذى أكد "فيلون" أهميته، فإننا نستطيع أن نتلمس المسارب التى سارت خلالها الفكرة المصرية ممتزجة بالتفكير اليونانى إلى الفكر اليهودى لتصبح فيما بعد مصدرًا يستقى منه "بولس" قوله بالتثليث.

(١) الفلسفة فى الشرق، ص٥٨.

obeikandl.com

المبحث الثانى

الإنسان وماهيته فى الفكر المصرى

يمثل "الإنسان" حجر الزاوية فى التفكير المصرى القديم، فمن تفكير قدماء المصريين فى الإله – أو الآلهة – وعلاقته بالإنسان، انسابت فلسفتهم حول الألوهية، والمبدأ، والمصير، ومن تأملهم للعالم الطبيعى بمظاهره وظواهره – كالسماء، والأرض، والشمس والقمر، والكواكب، والنيل – جرى تفكيرهم معبرًا عن العلاقة القائمة بين الإله – أو الآلهة – والإنسان، والكون. ومن نظرتهم للإنسان ذاته، روحه وجسده، وحياته ومماته ثم عودته للحياة بعد الموت، وخاصه من العذاب الأخروى، سجلوا آراء فى الفلسفة والأخلاق يصح معها القول – كما سنرى – بأنها كانت الأساس لكل فلسفة قامت بعد ذلك.

ثم كانت نتيجة تفكيرهم فى كل ذلك تفوقًا – يندهش له المفكرون المعاصرون – فى مجالات العلوم والفنون، والخبرة العملية كالهندسة والحساب والفلك والطب والتحنيط والبناء والنحت والتصوير والكتابة وغيرها مما كان الباعث عليه التفكير فى الإنسان وحياته ومصيره.

فإيمان المصريين بأن الروح لا تفنى بالموت، ولا تذهب بذهاب الجسد دفعهم – كما يقول الأستاذ "إليوت سميث" – إلى بذل جهدهم فى العناية بالأجساد وتحنيطها، ووضعها فى توابيت قوية ومقابر ضخمة كى تكون مستعدة لاستقبال الروح، والعيش فى السلام الكامل[1]. كما أن

(١) الطب والتحنيط في عهد الفراعنة: ترجمة أنطون ذكرى، ط القاهرة سنة ١٩٦٥، ص٣١.

الإصابات التى كانت تصيب بعض العاملين فى بناء الأهرامات جعلتهم يبرعون فى علم الطب والعلاج.

وقد حفلت بردية "أدوين سميث" التى ترجع أصولها إلى نحو خمسة آلاف عام، من ذلك على ما يذهل القارئ "لما تحويه من معلومات دقيقة عن إصابات الرأس والعظام لا تختلف كثيرًا عما تذكره كتب الطب الحديثة[1]". ومن الواضح أن الكثير من هذه العلوم والمعارف والفنون قد انبثق لدى المصريين القدماء من نظرتهم للإنسان ومصيره وحرصه على سلامة جسده بعد الموت حتى يكون صالحًا لاستقبال الروح والحياة من جديد. والآن، ما حقيقة الإنسان؟ وما هو السلوك الخلقى الذى ينبغى عليه التمسك به فى الفلسفة المصرية القديمة؟ ذلك ما نوجزه فى الصفحات التالية:

ماهية الإنسان:

لم يكن تفكير المصريين القدماء حول "الإنسان" منطلقًا فحسب من تفكيرهم فى الموت وما بعده من حياة ثانية يقف فيها أمام محكمة العدالة الإلهية مسئولا ومحاسبًا عما فعل فى حياته الأولى، وإنما كان لهم فى ذلك تفكير أصيل مستقل تناول قوى الإنسان وملكاته وعمل كل منها مما سنجد أثره فيما بعد لدى مفكرى عصر الازدهار الفكرى من اليونانيين. وسوف نرى عند الحديث عن الفسلفة اليونانية أن أشهر فكرة عرف بها سقراط، وهى معرفة الإنسان لنفسه، كانت معروفة فيما فكر فيه المصرى القديم متصلا بالإنسان.

(١) الدكتور مختار ناشد: فضل الحضارة المصرية على العلوم، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٣، ص١٠٠.

يقول "أورسيل": "وهكذا ابتداء من العصر السابق لسقراط إلى العصر الأفلاطونى الجديد، تركزت الفكرة اليونانية فى دائرة طرق التمثيل المصرية... وعندما انهارت مؤقتًا جميع العقائد فى خلال المملكة الوسطى، بدت مقابل روح الشك واليأس بعض الثقة المعقولة فى قيمة الإدراك الفردى، وذلك لإيجاد التوازن الضرورى فى الحياة اليومية ففكرة "اعرف نفسك" السقراطية كانت لها سوابق، فضلا عن فكرة محاسبة الضمير الرواقية... والحديث بين أحد المصريين وروحه، يعد مثالا سابقًا لقصة أيوب البابلية، ويمهد لقصة أيوب العبرية التى جاءت بعد الأولى بألف سنة..."(١).

والإنسان – كما تصوره وثائق الفكر المصرى القديم – يتكون من:

١- **الجسد (زت)**: وهو العنصر الذى يعتريه الفناء عندما تفارقه الروح، ثم يعود إلى الحياة من جديد عندما تعاود الروح الاتصال به. وطبقا لشعيرة خاصة يصبح الجسد – زت – غير قابل للفناء، ويحيى فى عالم الخلود.

٢- **الروح**: وهى العنصر الذى به توجد الحياة فى الجسد، سواء فى حياته الأولى أو فى حياته الثانية حين تحل به مرة أخرى بعد الموت، والروح عنصر خالد لا يصيبه الفناء حين يفنى الجسد، واعتقاد المصريين بخلود الروح، وبأنها تتردد على الجسد فى مقبرته، هو ما جعلهم يعنون بتزويد الميت بكل ما قد يكون بحاجة إليه من طعام وشراب وغير ذلك، وهو كذلك ما جعلهم يحرصون على بقاء الجسد

(١) الفلسفة فى الشرق: ص٦٠، ٦١.

سليمًا كاملا، ويجتهدون لصيانته من الفساد حتى تستطيع الروح أن تحل به[١].

٣- **العقل أو القلب:** وهو - كما يقول "أورسيل" - حاسة داخلية وأداة للإدراك[٢].

٤- **الكاه:** وهو عنصر مهم فى الإنسان، لكنه يبقى منفصلا عنه، وهو مبدأ القوة الفعالة فى الإنسان، ويفسر بعض الباحثين هذا الجزء بأنه "القرين أو الإله الحارس" وهو - فيما يرى الدكتور مختار ناشد - يولد مع الإنسان، ويلازم الجسد بعد الوفاة حتى يدافع عنه فى الحياة الأخرى[٣].

وقد بين "بول ماسون - أورسيل" هذه المقومات الأربعة للإنسان لدى قدماء المصريين فى قوله: "ويجب أن نعلم أيضًا أن الفرد لا يعيش فقط بواسطة جهازه الجسمى، وقلبه الذى يعد حاسة داخلية وأداة للإدراك، بل هناك جزء مهم فى الفرد يبقى خارجًا عنه وهو "الكاه" الذى يعادل شخصيته فى "مانا" مشتركة، وهى مبدأ القوة الفعالة للناس والآلهة. فالشعيرة التى تجمع المومياء إلى "الكاه" تحول الجسد - أى "زت" - إلى شىء لا يفنى، ويتيح للمتوفى أن يظهر إما على شكل روح "باه" وإما على شكل عقل "آخ"، ويظل العقل سماويا، أما الروح فتعود وتبعث للحياة فى المومياء والتماثيل متنقلة بين السماء والأرض..."[٤].

---

(١) انظر ج. هـ. بريستيد: تطور الفكر والدين فى مصر القديمة، ترجمة زكى سوس، ط القاهرة سنة ١٩٦١م، ص٤٦، وإليوت سميث: تاريخ التحنيط، ص٤١، والدكتور مختار ناشد: فضل الحضارة المصرية.. ص١١٩.

(٢) انظر الفلسفة فى الشرق: ص٥٨.

(٣) فضل الحضارة المصرية على العلوم: ص١١٩.

(٤) الفلسفة فى الشرق: ص٥٨.

فإذا كانت ماهية الإنسان تجمع بين عنصريين منفصلين، أحدهما الجسد زت – وثانيهما "الكاه"، وكان بين هذين العنصرين غاية التناقض، لأن "زت" بطبعه يتجه إلى الشرور والشهوات والمعاصى، بينما يعتبر "كاه" عنصرًا إلهيًا خالدًا، فكيف يمكن التوفيق بينهما؟ وهل يكون ذلك الدور منوطا بالروح؟ بمعنى أنها التى تستطيع تطهير الجسد والتسامى به وإكسابه معانى الروحية وخصائصها؟

إن الجواب على هذا السؤال لا يكون حاسمًا إلا حين تتوفر نصوص أخرى تكشف عن طبيعة هذه العناصر ووظيفة كل عنصر منها، لكنا، وفى حدود هذه النصوص القليلة، يتكون لدينا ظن غالب بأن الروح هى التى تقوم بتلك الوظيفة، أى تقوم بالتوفيق بين "زت" و"كاه"، يرجح ذلك ما هو معروف عن عقيدة المصريين حول الروح، والدينونة، والحساب الأخروى، فالروح – كما تثبت ذلك نصوص كتاب الموتى – هى التى تمثل أمام محكمة الموتى، وتواجه الحساب، وتلقى مصيرها بعده نعيمًا أو عذابًا، فلا بد أن تجتهد فى التقريب بين الجسد – ذلك العنصر الأرضى – والكاه الذى هو وجود إلهى خالد حتى تضمن الروح سعادتها بعد الحساب.

إن هذه الفكرة – فكرة الجسد والكاه فى التراث المصرى – تعيد إلى الذهن تلك الفكرة التى طالما قرأناها فى التراث اليونانى معدودة ضمن الابتكارات الكبرى لأفلاطون، أعنى نظريته فى "المُثل"، والحقيقة التى وقفنا عليها هنا تؤكد أن أصول هذه النظرية مقررة فى الفكر المصرى قبل أفلاطون بقرون عديدة، ولذا كان "أورسيل" محقا حين قرر أنه "لا يسعنا إلا

أن نرى فى ازدواج "زت" و"كاه" صورة أولية لنظرية العالمين الحسى والمعنوى التى وضعها أفلاطون فى تعسف، ودافع عنها بقوة.."[١]. وما يدرينا، فقد ينكشف من مخبوء التراث المصرى ما يبين أن الفكرة المصرية كانت صورة مكتملة – وليست أولية – لنظرية أفلاطون.

المبحث الثالث

الفلسفة الأخلاقية

الأخلاق كفرع من فروع الفلسفة، واجهت من المؤرخين والدارسين نفس الموقف الذى واجهته الفلسفة فى تحديد البدايات الأولى والموطن الأصلى لها، فالغالبية العظمى من المؤلفات التى تؤرخ للأخلاق سارت على أنها نشأت أول ما نشأت فى بلاد الإغريق، وعلى يد فلاسفتهم – لا سيما سقراط – لكن عددًا كبيراً من المفكرين عارضوا هذا الاتجاه السائد، وعابوا على أصحابه أنهم – كما يقرر ذلك "هنرى توماس" – تجاهلوا حقيقة مهمة، هى أن المفكرين الشرقيين – من مصر والهند وفارس وفلسطين – هم الذين فجروا الينابيع التى منها هبط الوحى على الفلاسفة اليونانيين ومن جاءوا بعدهم. ويضيف "توماس" أنه من المستحيل أن نفهم حكمة أفلاطون واسبينوزا وشوبنهارو وكانت ونيتشه وبرجسون وأمرسون وجيمس، من غير أن نقف على حكمة الشرق[٢].

(١) المرجع السابق: ص٥٩.
(٢) انظر هنرى توماس: أعلام الفلاسفة، ترجمة مترى أمين، دار النهضة سنة ١٩٦٤م.

وهذا الرأى هو ما نقف عليه عند كل من "ديورانت" و"سارتون" و"لوبون" و"آرسيل" و"توملين" وغيرهم من مؤرخى الحضارات والعلوم.

وفيما يتعلق بالأخلاق فى الفكر المصرى القديم لا بد من الإشارة إلى ما قرره عالم المصريات المشهور "جون برستيد" من أن الأخلاق التى نشأت على ضفاف النيل قبل الميلاد بآلاف السنين تمثل أول صورة عرفها الإنسان لهذا النوع من التفكير. ولعل عنوان كتابه "فجر الضمير" واضح فى الدلالة على هذا المعنى. وذلك هو نفس المعنى الذى أكده "توملين" فى قوله: "إن ما يهمنا فى المصريين كونهم أول ناس، بل أول شعب يناقش تلك المشاكل الأخلاقية، مشاكل الخير والشر مطبقة على الحياة ذاتها، ومشاكل الصواب والخطأ، مطبقة على السلوك البشرى، تلك المشاكل التى هى بعينها مثار اهتمامنا اليوم.. وإننا لا نظن إن كانت هناك أية محاولة مماثلة نحو التفلسف المنطقى المتماسك قبل تلك المحاولة التى قام بها الحكماء المصريون" [1].

سمات الفكر الأخلاقى لدى قدماء المصريين:

من خلال النصوص التى خلفها الفكر المصرى القديم حول الأخلاق يمكننا أن نتبين عددًا من السمات التى ترسم معالم الفكر الأخلاقى وترقى به إلى قمة يعز على العقل أن يتصورها فى تلك الأزمان السحيقة، وأهم هذه السمات ما يلى:

---

(١) توملين: فلاسفة الشرق، ترجمة عبد الحميد سليم، ط دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٠م، ص٢٧.

أ- أنه فكر مؤسس على الإيمان

يمثل الإيمان مكانة عالية فى الفكر المصرى القديم بعامة، وفى الفكر الأخلاقى على وجه الخصوص، فالإيمان بالله، والإيمان بالبعث بعد الموت، والإيمان بالحساب، يغلف كل حكمة أو وصية أخلاقية، ويقف وراء كل سلوك فاضل، ففى وصايا "بتاح حوتب" – وهى ترجع إلى بدايات الألف الثالث قبل الميلاد – يقول: "دعنى أحدث ولدى بكلمات أولئك الذين أنصتوا إلى حكمة الرجال الذين عاشوا فى قديم الزمان، أولئك الذين استمعوا مرة إلى كلمات الله".

وفى حكم "أمينوبى" يقول لولده: "الله يحب الذى يدخل السرور على قلب المسكين أكثر من الذى يحترم الرجل العظيم"، ويعلق "بريستيد" على هذه النصائح قائلا: "إنه مما يزيد فى أهمية تلك النصائح ووصولها إلى هذه القمة من تقدير الضمير، والإحساس برقابة الله – وذلك فى تعاليم مفكر مصرى فى القرن العاشر قبل الميلاد، وقبل أن يكتب شىء من التوراة – أننا نعرف الآن أن حكم "أمينوبى" هذه قد ترجمت إلى العبرية، وقرأها العبرانيون، وأن قسما منها قد وجد سبيله إلى كتاب العهد القديم.."[1].

ويضيف "برستيد" – شارحًا تأثير الفكر الخلقى المصرى القديم، فضلا عن تأثيره فى العهد القديم، فى بقاع شتى من العالم –: "إن حكم أمينوبى" قد قدمت مساعدة جوهرية فى الكشف عن مدى انتشار التعاليم الخلقية المصرية القديمة فيما وراء شواطئ النيل، وبخاصة فى فلسطين، إلى أن أعظم الأجزاء انتشارًا من حكم " أمينوبى" قد تجاوزت فلسطين إلى مدى

(١) فجر الضمير ص٣٣٦، وما بعدها.

شاسع، ولا تزال مستعملة بين ظهرانينا (ويذكر بريستيد) أن مثل هذا الانتشار الواسع للفكر المصرى القديم عن العلاقة بين الله والإنسان، يفتح لنا ذلك الموضوع الواسع وهو تأثير التطور الخلقى المصرى القديم، لا فى تاريخ الإنسان فحسب، بل تاريخ المدينة الغربية أيضًا.."[1].

إذا أضفنا إلى ما تقدم أن وصايا "بتاح حوتب" التى ترجع تاريخها إلى حوالى سنة ٢٨٨٠ ق. م قد تضمنت – ضمن ما تضمنته من حكم أخلاقية– قوله إن "النظرة العقلية هى أحسن ميراث أتركه لابنى"، كان لنا أن نستنتج أن الإلزام الأخلاقى فى الفكر المصرى القديم ينبع من مصدرين، هما الدين والعقل، وذلك أمر يؤكد – فضلا عن إشارته إلى القمة التى وصل إليها التفكير الخلقى عند المصريين القدماء – أن هذا الفكر كان يستمد من آثار وبقايا لرسالات سماوية لم تستطع الوثنية فى الأزمان التى سادت فيها أن تطمث معالمها.

ب– أنه فِكْر يجمع بين النظر والتطبيق العملى فى الحياة

فالفكر الخلقى فى مصر القديمة لم يكن مجرد نظريات وآراء تجريدية مقطوعة الصلة بالواقع كما يظهر ذلك فى الكثير من المذاهب الفلسفية فى القديم والحديث، وإنما تميز – وهذه سمة الفلسفات الشرقية القديمة عمومًا – بأنه فكر يرتبط بالواقع، ويصدر عنه، فالواقع العملى هو الغاية والهدف، وليس الهدف هو مجرد بناء نظريات عقلية مجردة لا تمت للواقع بصلة.

وقد نبه "جون كولر" إلى بروز هذه السمة التى تميز الفلسفات الشرقية

---

(١) السابق: ص٥٥، وقارن "أورسيل": الفلسفة فى الشرق، ص٥٥ وما بعدها. وانظر "جوستاف لويون": الحضارات الأولى ص٤.

القديمة بشكل عام، وبين أنها تعطى لهذه الفلسفات تميزًا – وليس عيبًا كما يزعم البعض – على الفلسفات الغربية وذلك فى قوله: "ونحن فى الغرب معتادون إلى حد كبير، على النظر الى الفلسفة باعتبارها شيئًا مستقلا عن الحياة: مغرقًا فى التجريد وفى الطابع الأكاديمى، بالنسة للشخص العادى أما فى الشرق، فإن الهوة بين الفلاسفة الشرقيين والناس العاديين ليست على هذا القدر من الاتساع، ذلك أن الفلاسفة يستمرون فى التواصل عن كثب مع الحياة، عائدين إلى محك التجربة الإنسانية لاختيار نظرياتهم، والناس العاديون يمتدون باهتماماتهم إلى ما يتجاوز حياتهم العادية، ويكافحون لرؤية الوضع الصحيح لوجودهم ولفهمه..."(١).

وبعد أن يشرح كولر أسباب الاختلاف بين الشرق والغرب يقرر أنه "من النتائج المترتبة على ذلك: الميل الشرقى إلى حمل الفلسفة محمل الجد البالغ، فهى فى الشرق ليست أمـــرًا مجردًا متسمًا بالطابـــع الأكاديمى، أو لا تربطه كبير صلة بالحياة اليومية وإنما ينظر إليها باعتبارها المشروع الأكثر أهمية وجذرية للحياة"(٢).

وفيما يتصل بالفكر الأخلاقى لدى قدماء المصريين على وجه الخصوص، وتميزه بالجمع بين النظر والتطبيق، يؤكد "توملين" هذه الخصوصية فى قوله: "إن ما يهمنا فى المصريين كونهم أول ناس، بل أول شعب يناقش تلك المشاكل الأخلاقية، مشاكل الخير والشر، مطبقة على الحياة ذاتها ومشاكل الصواب والخطأ، مطبقة على السلوك البشرى، تلك المشاكل التى هى بعينها مثار اهتمامنا اليوم... وإننا لا نظن إن كانت هناك

---

(١) جون كولر: الفكر الشرقى القديم، ص٢٠، ٢١. (٢) المرجع السابق: نفس الموضع.

أية محاولة مماثلة نحو التفلسف المنطقى المتماسك قبل تلك المحاولة التى قام بها الحكماء المصريون.."[1].

ج- أنه فِكْر يحقق التوازن بين الجانب الروحى والجانب المادى فى الحياة

إذا كان من المعضلات التى تعجز عن حلها الحضارات الحديثة تلك المعضلة التى تتعلق بكيفية تحقيق التوازن بين التقدم المادى والسمو الروحى، فإن هذه المعضلة قد وجدت الحل فى الفكر الأخلاقى لدى قدماء المصريين منذ عصور موغلة فى القدم.

وفى الفصل الذى عقده عالم البصريات المشهور "جون بريستيد" فى كتابه "فجر الضمير" تحت عنوان "السلوك والمسئولية، وظهر النظام الخلقى عند قدماء المصريين" يكشف لنا عن تلك السمة الرائعة فى هذا الفكر، وهى قدرته على تحقيق التوازن بين الواقع الخلقى والقوة المادية فى حياة المصريين، فمع أن المصريين قد نالوا من السيطرة على عالم المادة، وتحقيق القوة أعظم قسط، فإن الفضائل الخلقية الرفيعة كانت ذائعة فى هذا المجتمع، والوازع الخلقى كان موفورًا، والقيم مرعية.

وهكذا لم يكن الفكر الأخلاقى فى مصر مجرد نظام محصور داخل أبراج عاجية، تطل على الواقع من عليائها، دون أن تعنى به، أو تندمج به، أو تملك فعالية التأثير فيه، وإنما كان هذا الفكر تعبيرًا عن الكينونة الإنسانية كلها، وتلبية جادة وحقيقية لطموحاتها المتشابكة المعقدة.

---

(١) توملين: فلاسفة الشرق، ص٢٧.

من القيم والفضائل الخلقية فى الفكر المصرى القديم:

اشتمل التراث الأخلاقى لقدماء المصريين على أسمى ما تضمنته الأديان السماوية، وما سعت لبلوغه الفلسفات الأخلاقية على مر العصور من القيم والفضائل الأخلاقية، وفيما يلى نشير إلى بعض النماذج مما حفل به الفكر الأخلاقى فى مصر القديمة من قيم وآداب.

١ - الحق والجمال:

إذا كان مشاهير الفلسفة اليونانية قد احتفوا بالحق وأعطوه أهمية كبرى، وجعلوه على رأس القيم الثلاث الخالدة (الحق، الخير، الجمال)، فإن حكماء مصر قد عبروا - منذ أكثر من ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد - عن جمال الحق وخلوده وثباته، ونبهوا إلى وجوب التمسك به، والسير وفق قوانينه، مازجين بين "الحق" و"الجمال" فى لوحة أخلاقية رائعة يورثها الرجل الفاضل لأبنائه.

فالحق - كما عبرت عنه وصايا "بتاح حوتب" - جميل، وقيمته خالدة، ولم يتزحزح من مكانه منذ خلق، لأن العقاب يحل بمن يعبث بقوانينه... وقد تذهب المصائب بالثروة، ولكن الحق لا يذهب، والرجل المستقيم يقول عنه: إنه متاع والدى، ورثته عنه..

والحق أحق أن يتبع، حتى ولو جلب الضرر لمن يتبعه ويتمسك به "تعلق بأهداب الحق .. ولا تتخطاه، حتى ولو كان التقرير الذى تقدمه لا يسر القلب". والحق والنظر العقلى متلازمان، فإذا كان الحق أحسن ما يفخر به الرجل من ميراث أبيه، فإن "النظرة العقلية - كما يقول بتاح حوتب - هى أحسن ميراث أتركه لابنى".

وهكذا يربط الفكر المصرى القديم بين قيم "الحق" و"الفكر" (نظر العقل)، و"الجمال" برباط متين يندر العثور على مثله فى هذا الماضى السحيق.

٢- الصدق والإخلاص

حفل "كتاب الموتى" بنصوص تكشف عن قيمة "الصدق" وتشدد على التمسك به، وتبين أن من يفرط فيها يتعرض لأشد أنواع العقاب فى الآخرة، ففى عقيدة المصريين القدماء - كما تسجل ذلك نصوص الأهرام، وكتاب الموتى - أن الروح تتجه بعد الموت إلى واد سحيق، يوجد بوسطه نهر الدينونة الرهيب، حيث توجد محكمة الموتى المعروفة بمحكمة "أوزوريس"، وأمام هذه المحكمة تمثل الروح وتنهال عليها الأسئلة التى منها:

هل ارتكبت جريمة ما؟ - هل نطق لسانك بالكذب؟ وشهدت بالزور؟ - هل غدرت بجارك؟ - هل أحببت قريبك كنفسك؟

فاعتقاد المصريين القدماء بأنهم يومًا ما لا بد متعرضون لهذه الأسئلة، يكشف بوضوح ضرورة التحلى بالصدق والوفاء والإخلاص. وبدون ذلك لا يستطيع الواحد منهم أن يقف فى ثبات أمام محكمة العدل الإلهية معلنًا: "هاأنذا أعاين جمالك، ولم أرتكب الظلم فى الناس، لم أقتل ولم أأمر بالقتل، ولم أكذب، ولا أذكر أننى خنت أحدًا.ولم أطفف كيل القمح، ولم أغش فى قياس الذراع، وفى حد الحقل، ولم أضغط على قب الميزان..".

وفى حكم "أمينوبى" يشير إلى عدد من الفضائل التى يجب على كل إنسان أن يتحلى بها معللا ذلك بأن: "الله يمقت الرجل الكاذب"، وأكبر ما يمقته الرجل ذو القلبين".

وفى بردية ترجع إلى الألف الأول قبل الميلاد – وهى محفوظة بمتحف لندن – ينعى كاتبها ضياع الصدق، وانعدام الإخلاص، وتبدل الأخلاق: "لمن أتكلم اليوم؟ الإخوة سوء، والأصدقاء خونة.. فالقلوب انحازت إلى اللصوصية.. والخائن صار أمينًا، والأمين عدوًّا".

ولا شك أن ربط الكذب والنفاق – فى الفكر المصرى القديم – بمقت الله وغضبه والتعرض لعقابه لممّا يعطى لفضائل الصدق والإخلاص رسوخًا فى المجتمع، وتحققًا فعليًّا بين أفراده.

٣- العدالة

العدالة بمعناها الشامل تمثل قيمة كبرى، وفضيلة أخلاقية سامية من الفضائل التى عنى بها التراث المصرى القديم. وهى فضيلة تشمل الجانب السياسى، والجانب القضائى، والجانب الاجتماعى والشخصى.

فالحاكم لا يكون صالحًا إلا إذا تحققت فيه تلك الفضيلة، وكان قادرًا على إرساء دعائم العدل والمساواة بين الناس، ففى التأملات التى كتبها ملك "هيراقليوبوليس" إلى ولده يقول: "سينصلح حـــال الحاكم ذى العقليـــة التى لا تعرف المحاباة، لأن الاحترام ينتقل من قصر الحاكم إلى خارجه"[١].

وعدالة الحاكم تستلزم أن يختار قضائه وولاته وموظفيه ممن يتوفر فيهم هذا الخلق، والقاضى لا يكون عادلا إلا إذا توفر له ما يكفيه ويغنيه عن التطلع لما هو فى أيدى الآخرين. يقول هذا الملك الفيلسوف: "من هو غنى فى بيت أبيه لا يظهر محاباة، فإن من يقول: لو كان لى كذا، لن يكون منصفًا، ويحابى من يستطيع مكافأته..".

(١) البردية التي تضمنت هذه التأملات يرجع تاريخها إلى ألفى سنة قبل الميلاد، وهى محفوظة بمتحف لينتجراد.

وهكذا وضع الأخلاقيون فى مصر القديمة منذ زمن بعيد الأسس التى تتضمن عدالة الحاكم والوالى والقاضى، وهى أن يكون لديه ما يغنيه عما فى أيدى الناس.

والعدالة تتطلب المساواة بين الناس، وإنزالهم منازلهم، لا على أسس من شرف الحسب والنسب والغنى ونحو ذلك، ولكن على أساس ما لدى كل منهم من مواهب وإمكانيات، ففى تأملات ذلك الحكيم ترد تلك الوصيـــة: "لا ترفع ابن شخصية مهمة على شخص عادى، ولكن اختر لنفسك رجلا بناء على ما يتمتع به من قدرة".

والعدالة فى الفكر المصرى – كما أشرنا من قبل – ليست فضيلة تخص الحكام والقضاة وحدهم وإنما هى خلق يجب أن يتحلى به كل فرد، بحيث يكون وازعًا ورادعًا له عن ظلم الآخرين، ففى وصايا الحكيم "أمينوبى" نقرأ له قوله: "لا تزحزحن الحد الفاصل بين الحقول، ولا تكن جشعًا من أجل ذراع من الأرض، ولا تتعدين على حد أرملة، وارقب من يفعل ذلك.. فبيته لعدو البلد، وأملاكه تؤخذ من أيدى أطفاله، ومتاعه يعطاه غيره" فالحكيم المصرى هنا ينهى عن ظلم الناس بعضهم بعضًا، ويبين عاقبة الظالمين ومصيرهم بشكل يبعث فى النفوس الخوف من الوقوع فى الظلم، وأى خوف أشد من خوف الرجل على أبنائه الذين سيفقدون حتمًا ما جمعه لهم أبوهم عن طريق ظلم الآخرين[1].

---

(١) يذكر هذا المعنى بما ورد فى القرآن الكريم، حيث يقول الله تعالى: {وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم، فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا . إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا} النساء: ٩، ١٠.

ويتسع مفهوم العدل فى الأخلاق القديمة ليشمل عدل الرجل مع أهل منزله، لا سيما زوجته، يبين ذلك ما جاء فى وصايا "بتاح حوتب": "إذا كنت رجلا ناجحا فوطد حياتك المنزلية، وأحب زوجتك فى البيت كما يجب... أشبع جوفها، واستر ظهرها، واجعل قلبها فرحا ما دمت حيا..".

والحق أن المقام يطول بنا كثيرًا لو رحنا نستقصى كل مظاهر "العدالة" كما وردت فى فكر الأخلاقيين المصريين، وحسبنا فى هذا المقام أن نؤكد على أن "العدل" عندهم يبدأ من الحاكم ويمتد إلى قضاته وولائه وموظفيه، لأن الاحترام – كما نصت على ذلك تأملات ملك "هيراقليوبوليس" – ينتقل من قصر الحاكم إلى خارجه[1]، ويمتد العدل كذلك ليشمل عدل الإنسان مع غيره من الناس، وعدله مع نفسه، وكذلك فى معاملته لأبنائه وزوجته.

٤ – العفة

ترتقى الأخلاق إلى قمة سامقة عندما يتحدث المفكرون المصريون القدماء عن فضيلة العفة وكبح هوى النفس، وقد تناول حديثهم عن هذه الفضيلة عفة البطن، وعفة الفرج، ففى مقام عفة البطن والزهد عما فى أيدى الناس نقرأ قول أحدهم: "إذا أردت أن يكون خلقك محمودًا، وأن تحرر نفسك من كل قبيح، فاحذر الشراهة، فإنها مرض عضال لا يرجى شفاؤه، والصداقة معها مستحيلة...".

"ولا تكن جشعًا من أجل ذراع من الأرض، ولا تتعدين على حد أرملة".

---

(١) تتضمن هذه العبارة معنى المقولة المشهورة: "الناس على دين ملوكهم".

ونستمع لآخر ينعى على الناس فسادهم وعدم تعففهم عما فى أيدى الآخرين: "لمن أتكلم اليوم، فالقلوب انحازت إلى اللصوصية، واغتصب الإنسان متاع جاره... فالناس يسرقون، كل الناس يسرقون".

وفى وصايا "أمينوبى" يقول: "لا تطأن حرث الغير، احرث الحقول حتى تجد حاجتك، وتأخذ خبزك من جرنك الخاص، والمكيال الذى يعطيك الله خير لك من خمسة آلاف تكتسبها بالبغى".

وفى مقام عفة الفرج يحذر "بتاح حوتب" من الاختلاط بالنساء ويقرر أن ذلك مصدر كل شر، وسبب تدمير كل معانى الصداقة، ومنشأ العداة، وطريق الهلاك. يقول فى ذلك: "إذا أردت أن تحافظ على الصداقة فى بيت تدخله، سواء أكنت سيدًا، أم أخًا، أم صاحبًا، فاحذر القرب من النساء، فإن المكان الذى يكن به ليس بالحسن، ومن الحكمة إذًا ألا تحشر نفسك معهن، ومن أجل ذلك يذهب ألف رجل إلى الهلاك بسبب متعة برهة قصيرة تضيع كالحلم".

ويؤكد نفس المعنى محذرًا من فتنة النساء، فى قوله: "عندما يفتتن الإنسان بأعضائهن البراقة.. فإنها تصير بعد ذلك مثل حجر "هرست" – أى شيئًا تافهًا – والأمر لحظة وجيزة مثل الحلم ... والموت يأتى بعده فى النهاية...".

وهكذا لا نملك إزاء هذا الحديث المستفيض عن قيمة "العفاف" – وما سبقها من قيم وآداب أخلاقية – إلا أن نؤكد ما قرره "بريستيد" وهو أن الفكر الأخلاقى فى مصر القديمة قد بلغ القمة من تقدير الضمير،

والإحساس برقابة الله[1]. وأن الانتشار الواسع لهذا الفكر عن العلاقة بين الله والإنسان، يفتح لنا – كما يقول "بريستيد" – ذلك الموضوع الواسع، وهو تأثير التطور المصرى الخلقى القديم، لا فى تاريخ الإنسان القديم فحسب، بل فى تاريخ المدنية الغربية أيضًا[2].

وقبل أن ننهى هذا البحث لا بد أن نشير إلى أن الفكر الخلقى فى مصر القديمة لم يعن فقط بما ذكرنا من قيم الحق والخير والجمال والصدق والإخلاص والوفاء والدل والمساواة والعفاف، وإنما تناول كذلك العلاقات السوية داخل الأسرة باعتبار أن الفرد السوى الفاضل هو نتاج الأسرة الفاضلة: "إننى لا أقول كذبًا، لأنى كنت إنسانًا محبوبًا من والده، ممدوحًا من والدته، حسن السلوك مع أخيه، ودودًا مع أخته"[3] .

وتناول كذلك العطف على البؤساء والمحتاجين: "الله يحب الذى يدخل السرور على قلب المسكين، أكثر من الذى يحترم الرجل العظيم".

كذلك تناول هذا الفكر – بدرجة عالية من التسامى والاستيعاب – فضيلة التواضع وعدم السخرية من الآخرين، أو التقليل من شأنهم، لأن الله هو الذى يرفع ويخفض: "لا تضحكن من رجل أعمى، ولا تهزأن بقــزم، ولا تستهزئن برجل فى يد الله، ولا تقسون عليه عندما يبغى، فالبشر من طين وقش، والله بانيهم، فهو يهدم ويبنى ثانية كل يوم، يخفض آلافًا كما يشاء، وآلافًا يرفعهم...".

---

(١) فجر الضمير: ص٣٤٥.
(٢) المرجع السابق: ص٣٥٥.
(٣) المرجع السابق: ص١٣٠.

وأخيرا تحدث الفكر المصرى عن قيمة العدل، وأكد على أن يأكل الإنسان من كسب يده، وغير ذلك من الفضائل التى تحتاج فى الحقيقة إلى بحث خاص بها. ولا شك أن موضوع الأخلاق فى الفكر المصرى القديم يؤكد ما قلناه من قبل وهو أن هذا الفكر قد تمثل الكثير من آثار إبراهيم ويوسف وموسى وغيرهم من الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين.

obeikandl.com